اجناس الناس واسباب اختلافها (١)

(من خطبة الرآسة في فرع الانتربولوجيا (اي علم الانسان) في مجمع تقدم العلوم البريطاني للاستاذ ارثركيث)

سانقضي نصف ساعة في الكلام امامكم على موضوع اهتمّت به العقول من قديم الزمان وهو كيف انقسم نوع الانسان الى اجناس متباينة كالزنجي والمغولي والقوقاسي او الاوربي . انا نميز الزنجي عن غيره بلحظة نراهُ اسود الجلد بادي البشرة مفتول الشعر افطس الانف واسع العينين منتفخ الشفتين مشيهُ وصوتهُ وتصوراتهُ كل ذلك خاص به فيسهل تمييزهُ عن غيره من سائر الاجناس حتى عن المغول سكان الجانب الشمالي الشرقي من اسيا . والزنجي والمغولي يفرقان عن الاوربي او القوقاسي فان هذا جلدهُ ابيض الى الصفرة وانفهُ دقيق عالي القصبة وشفتاهُ رقيقتان

اذا سألنا كيف وُجدت هذه الاجناس الثلاثة المختلفة وجدنا ان قواعد النشوء المعروفة عاجزة عن تعليلها فان الانتخاب الطبيعي والانتخاب الجنسي يثبتان الفروق الجسدية والعقلية ويزيدانها وضوحاً ولا يكفيان لتوليد ما نراهُ من مقومات هذه الاجناس . ولكن في جسم الانسان وسائل خفية استخدمتها الطبيعة لتوليد الفروق في اجناس الناس والحيوانات . وقد كانت هذه الوسائل مجهولة في عهد دارون اما الآن فقد شرعنا نعرف شيئاً من امرها . وموضوع خطبتي هذه الوسائل التي نوّعت اجناس الناس

في جسم الانسان خمسة انواع من الغدد الصغيرة المحجوبة عن الابصار لو جُمعت كلها معاً ما بلغ وزنها اكثر من جزء من ١٨٠ جزءاً من جسم الانسان . وهي الغدة النخامية وجرمها كثمرة الكرز ومقرها في باطن الجمجمة عند قاعدة الدماغ والغدة الصنوبرية وهي اكبر قليلاً من حبة الشعير ومقرها في الدماغ ايضاً . والغدة الدرقية ومقرها في العنق حول الحنجرة . والجسمان الذان فوق الكليتين كغطائين لهما . والغدد الصغيرة المنتشرة في الخصيتين والمبيض

(١) الجنس في الاصطلاح المنطقي فوق النوع ولكن اصطلح الكتاب المعاصرون على ترجمة كلمة race بكلمة جنس كالجنس المغولي والجنس الزنجي والجنس القوقاسي

وقد عرف الاطباء الآن ان نمو الجسم يزيد او ينقص او يتغير اذا اصابت آفة غدةً او اكثر من هذه الغدد او اذا انحرفت وظيفة غدة او اكثر منها

منذ ثلاث وثلاثين سنة جاء بعض النساء الدكتور بيير ماري Piere Marie الباريسي وشكون اليهِ من صداع مستمر اصابهن وقلن ان وجوههن وايديهن وارجلهن واجسامهن كلها تغيرت في السنوات الاخيرة حتى تعذر على اصدقائهن معرفتهن . فشكواهن هذه نبهت الاذهان وافضت الى ما عرفناهُ من وظائف الغدة النخامية اذ تبين ان عليها يتوقف شكل الجسم وقيافتهُ . فاطلق الدكتور ماري على الآفة التي اصابت تلك النساء اسم الاكرومیغاليا Acromegalia اي تضخم الاطراف وتسمّى ايضاً مرض ماري نسبة اليهِ . ثم ظهر ان هذا الداء يصيب كثيرين وان كل الذين يصابون بهِ يصيبهم ايضاً تضخُّم او ورم في غدتهم النخامية وقد يحدث ذلك في عائلة كاملة

وللغدة النخامية علاقة اخرى بكبر اجسام بعض الناس حتى تفوق الحد المعتاد . فانهُ اذا طالت قامة شاب حتى تبلغ مترين او اكثر تكون غدتهُ النخامية قد تضخمت تضخماً غير عادي . فلهذه الغدة شأن كبير في تحديد قامة الانسان . والقامة من الصفات المقومة للاجناس . والغالب ان يكون الجبّار طويل القامة وضخم الجسم معاً ولكن هاتين الصفتين قد لا تجتمعان في الشخص الواحد بل يتضخم جسم الفتى ولا يزيد طولهُ كثيراً او يزيد طولهُ ولا يتضخم جسمهُ ولكن هذا نادر . وهناك حالة اخرى سببها الغدة النخامية اذا طالت القامة كثيراً وهي ان الاعضاء الجنسية الاولية والثانوية (١) تتوقف عن النمو او تزول ويميل الدهن الى التجمع على الجسم ولاسيما على الكفل والفخذين . ففي هذه الحالات الثلاث يكون فعل الغدة النخامية قد زاد عن الحاجة فخلل اصابها . وقد يأول الخلل الى نقصان فعلها فيبقى الولد ولداً جسماً وعقلاً مهما كبر سناً لان غدتهُ النخامية اصيبت بآفة اضعفت فعلها . وسنرى ان ذلك يحدث ايضاً لآفة تعتري الغدة الدرقية

فالدينا من الادلة التي تزيد يوماً فيوماً يدل ان الغدة النخامية من الوسائل الفعالة في نمو جسم الانسان وعليها يتوقف طول قامتهِ وتقاطيع وجههِ ونسيج

(١) اي الفارقة بين الذكور والاناث الاولية منها كالبيض والخصيتين والثانوي كاللحية والشاربين

جلدهِ وشكل شعرهِ . وكلها من مميزات الاجناس بعضها عن بعض . واذا قابلنا بين الاجناس الثلاثة الرئيسية الزنجي والمغولي والقوقازي رأينا الغدة النخامية اقوى فعلاً في القوقازي منها في الزنجي والمغولي فان الشمم (علو الانف) وارتفاع الحاجب (عظم الحاجب) وبروز الذقن والميل الى ضخامة الجسم وعلو القامة في اكثر الاوربيين تُعلَّل كلها بفعل الغدة النخامية على ما وصلت اليهِ معارفنا الى الآن

ولا شبهة ان اهتمامنا باسباب نمو الاجسام زاد في السنين الاخيرة عما شاهدهُ الاطباء واكتشفوهُ في رجال ونساء ايفت غددهم النخامية . ولقد كان القدماء يعلمون ان جزءاً صغيراً من جسم الانسان قد يتحكَّم في نموهِ وسائر اوصافهِ اذ عرفوا من قديم الزمان ان نزع الخصيتين يغير شكل الانسان والحيوان ظاهراً وباطناً . ويزيد هذا التغير اذا نزعت الخصيتان باكراً . والآن لو زار الارض شخص في كوكب سكانهُ من جنس واحد اي ليس بينهم ذكر وانثى لتعذَّر عليهِ ان يصدق ان الرجال والنساء من نوع واحد او ان الخصي الاجرد الوجه الدقيق الاطراف البطيء الحركة المترهل هو اخو الرجل الملتحي القوي البنية المجدول العضل

منذ سبعين سنة اكتشف بعضهم اجساماً غدية صغيرة جداً منتشرة في الخصيتين والمبيض لا شأن لها في وظيفة الخصيتين ولا في وظيفة المبيض . ثم عُلم حديثاً ان لها شأناً في نمو الانسان فان كل ما نراهُ من التغير في الفتيان والفتيات عند سن المراهقة سببهُ هذه الاجسام الغدية فاذا نزعت الخصيتان او اصابتهما آفة منعتهما من النمو تأخَّر نمو الجسم او تغيَّر . واذا بحثنا عن الوسائل التي سبَّبت الفروق بين اجناس الناس وجب ان لا نهمل ما لهذه الغدد من الفعل . وعندي ان الفرق بين الذكر والانثى اشد في الجنس القوقازي منهُ في المغولي والزنجي لانهُ قلما ينبت لحية للذكور من الزنوج والمغول وقلما يكون في ابدانهم شعر . ولبعض اصناف الزنوج سوق طويلة كسوق البجع كأنَّ الغدد المنتشرة في خصاهم ضعيفة . ومتى شاخت النساء فضعف البيض فيهن ظهرت على وجوههنَّ ملامح الرجال

ومما يجري مجرى هذه الغدد الغدتان اللتان فوق الكليتين فان لهما علاقة بلون البشرة وقد عرف ذلك منذ سنة ١٨٩٤ حينما لاحظ الدكتور توماس ادیسن انهُ اذا تلفت هاتان الغدتان لسبب مرض اسمرَّ جلد المصاب او تغير لونهُ

عدا ما يصيبهُ من العوارض الاخرى . ومنذ ١٥٠ سنة استنتج جون هنتر مما كان لديهِ من الادلة ان بشرة الانسان كانت اولاً سوداء . وكل ما رأيناهُ من الادلة بعد ذلك جاءت مؤيد لاستنتاجهِ . فاذا اسمرَّ الجلد من آفة تصيب هاتين الغدتين وتتلفها فذلك دليل على ان وظيفتها نزع الاسمرار من الجلد. واننا نحن الاوربيين قد ابيضَّ جلدنا لان غددنا هذه نزعت المادة السوداء من جلدنا

الاَّ ان هاتين الغدتين غير مقصورتين على ذلك بل لهما وظائف كثيرة فقد تنمو احداها في سن الطفولية نموّاً يرقع الضرر في جسم صاحبها فتنمو اعضاؤهُ التناسلية بسرعة حتى يظهر انهُ راهق وهو لا يزال صغيراً. فالصبي يتسع صدرهُ وتقوى عضلاتهُ ويخشن صوتهُ ويلتحي وجههُ والبنت تتغير سحنتها وتصير شبيهة بالرجل . فلا شبهة اذاً في ان هاتين الغدتين من الوسائل الفعالة في نمو جسم الانسان والتفريق بين اجناسهِ . ومن المعلوم ان بعض الشعوب يبلغ اولادهم قبلما يبلغ اولاد غيرهم وان الشعوب تختلف في نمو الشعر ولون البشرة وستزيد معرفتنا لاسباب ذلك متى عرفنا كل وظائف هاتين الغدتين

منذ بضع سنوات حدث ما لم تكن تنتظرهُ وهو ان مرض الغدة الصنوبرية الصغيرة ينتج ما ينتجهُ حدوث ورم في الغدتين اللتين فوق الكليتين. فقد ينتج مما يشبه ان يكون ورماً في الغدة الصنوبرية بلوغ الصغار سن المراهقة فجأةً . والغدة الصنوبرية هذه اكبر قليلاً من حبة القمح وهي غائرة في الدماغ وكنا نحسبها اثراً لعين متوسطة بين عينينا ورثناها من بعض اسلافنا الاقدمين اما الآن فالادلة المرضية والامتحانية تدل على ان لها شأناً في نمو جسم الانسان

ولنرجع الآن الى الغدَّة الدرقية وهي من باب البحث في علم الانسان اهم كل الاعضاء او الغدد التي لها مفرز داخلي . محل هذه الغدة مقدم العنق وهي معرَّضة للتضخم في النساء . وهنا اوجه نظركم الى امر اشرتُ عنهُ لما ذكرت الغدة النخامية والغدتين اللتين فوق الكليتين فان كل غدة من هذه الغدد تفرز في الدورة الدموية نوعين من المواد النوع الواحد يفعل مباشرة فعلاً قريباً في تقوية الاعضاء الخاضعة للارادة لكي تقوم بالعمل المطلوب منها حينما يكون الجسم مستريحاً او حينما يكون مضطرّاً للجهاد . والنوع الثاني يفعل فعلاً

بعيداً فانهُ يعدّل نمو اعضاء الجسم ويوقّت بينها . اما من حيث الفعل القريب فمعارفنا الحاضرة تدلُّ على ان هذه الغدة تفرز مادة اذا سارت في الدورة الدموية عدّلت انحلال الانسجة . فاذا حرّكنا عضلاتنا او اذا تعرّضت اجسامنا للبرد او اذا اتصلت بنا عدوى مرض معدٍ فهذه الغدة تساعدنا في توجيه كل ما يمكن توجيههُ من الوقود او الجهد اللازم لانسجة البدن . فلها من حيث فعلها القريب شأن كبير في توليد اجناس الناس وبقائها . اما فعلها البعيد في النمو فاهم من فعلها القريب في تنويع الصفات التي تميز اجناس الناس . فالاماكن التي يصاب سكانها بمرض القواتر (وهو يصيب الغدة الدرقية) عُرف منذ سنين كثيرة ان الاولاد الذين يصابون فيها بهذا المرض يصيرون بلهاً قصار القامة وتصيرلهم هيئة خاصة بهم. اي ان مرض هذه الغدة يوقف نمو الجسم ويغيّرهُ حتى يصح القول ان المصابين به يصيرون جنساً خاصاً من البشر . واذا اصابها المرض بعد ما يكون الجسم قد بلغ حدهُ من النمو وقع فيهِ اختلال كبير وهو المعروف بمرض المكسيديما Myxedema فيبرد الجلد ويجف ويخشن ويبطل افراز العرق منهُ او يصير نادراً وقد يصير لونهُ اصفر. وتحمر الوجنتان ويصير الجلد شفافاً على نوع ما ويسقط اكثر شعر الراس وفي الغالب يسقط شعر العانة والابطين والحاجبين والاجفان . وفي حوادث كثيرة تنخر الاسنان وتصير قصفة . وتزول هذه الاعراض كلها اذا عولج المصاب بخلاصة الغدة الدرقية . فهنا دليل قاطع على ان هذه الغدة تفعل بالجلد والشعر مباشرةً وهما اقوى المميزات لاجناس الناس . ومن هذا القبيل فعل هذه الغدة في نمو اقسام اخرى من الجسم ولاسيما نمو الجمجمة والعظام وبنوع خاص قاعدة الجمجمة والانف . فانها تؤثر في نمو قاعدة الدماغ وبها يصير الانف افطس اخنس ويبرز اعلى الجبهة ويتسطح الوجه ويصغر عظم الانف ولاسيما اذا قوبل ببروز التمكين. فهذه التغيرات تجعل لوجه المغول شكلاً خاصاً بهِ وتفعل بعض ذلك في وجه الزنوج بل ان شكل الوجه المغولي اظهر في البشمن منهُ في المغول. وعندي ان الغدة الدرقية بنفسها او بما يصيبها من تغيُّر فعلها او تنوعهِ كانت السبب في تكوين بعض الصفات الخاصة بالمغول والزنوج

ستأتي البقية